النظريات الدلالية

ركزت المناهج اللغوية في دراسة المعنى على المعنى المعجمي أو دراسة معنى الكلمة المفردة باعتبارها الوحدة الاساسية لكل من النحو والسيمانتيك، وقد قدمت بهذا الخصوص مناهج ونظريات متعددة ومتنوعة.

وقد نتج عن اختلاف المنهج اختلاف النظرة الى المعنى، واختلاف تعريفه، وهذا التعارض أو الاختلاف بين تعريفات المعنى ناتجٌ عن حرص كلّ متخصص على أن يلبي التعريف احتياجاته ومتطلبات حقله الدراسي، أو راجعٌ إلى اختلاف في المنهج أو الطريقة المعتمدة في الدراسة.

وتحديدًا للاطار النظري العام لعلم الدلالة، سنعرض لبعض النظريات التي قَدَّمتْ معايير أولية لمسالة المعنى، وسيكون تركيزنا على أهم معالم النظرية وقواعدها.

ولقد تعددت المناهج اللغوية الغربية المختلفة لدراسة المعنى أو التوصل إلى المعنى أو تحليل المعنى وتفسيره، إذ إنّ أهم هذه المناهج أو النظريات تتمثل في: النظرية الإشارية، والنظرية السياقية، والنظرية السلوكية، والنظرية التصورية، ونظرية الحقول الدلالية، والنظرية البراكماتيكية(التداولية)، والنظرية التحليلية. وفيما يلي سنسلط الضوء على هذه النظريات كلّ على حدة بالبحث والتأصيل والتفصيل.

1-نظرية الإشارة(نظرية مثلث المعنى):

من أقدم النظريات التي حاولتْ تفسير المعنى وبيان ماهيتها، وقد قامتْ هذه النظرية على يد كل من(أوجدن)و(ريتشاردز)، اللذان ظهرتْ أفكارُهما(الأفكار المعبّرة عن علاقة اللفظ والمعنى)في كتابهما(The Meaning of Meaning)(معنى المعنى)، فقد حاولا تقديم نظرية لتفسير المعنى على أساس فلسفي منطقي رياضي، حيث رأَوْا أنّ معنى الكلمة هو ببساطة ما تشير إليه في الخارج، ولذلك سمّيت هذه النظرية بـ(الإشارية) إستنادًا إلى أنّ الاشياء في الواقع الخارجي تشير إلى تصورات هذه الأشياء في العقل البشري الذي يلتقط صور هذه الاشياء وتبقى هذه الصور في العقل البشري الذي يُعبّر عن هذه الاشياء بكلمات في نطقه.

وقد أوضح أوجدن وريتشارد هذه العلاقة المتبادلة بالمثلث الآتي المعروف(المثلث الدلالي):

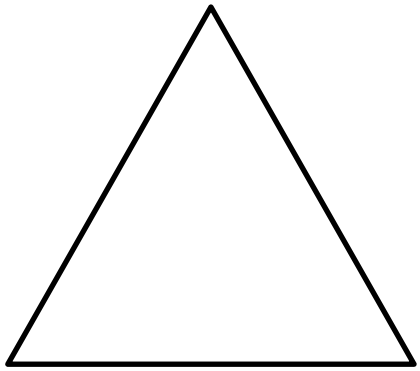

فهذا الرسم يميز ثلاثة عناصر مختلفة للمعنى، ويوضح أنّه لا توجد علاقة مباشرة بين الكلمة كرمز، والشيء الخارجي الذي تعبّر عنه، والكلمة عندهما تحوي جزأين هما صيغة مرتبطة بوظيفتها الرمزية، ومحتوى مرتبط بالفكرة أو المرجع.

وقد سبق(دي سوسير) أوجدن وريتشارد في الاشارة إلى وجود علاقة بين الكلام ومعناه، أو الشيء وما يدلّ عليه بفكرة(الدائرة الدلالية) المتمثلة فيما يأتي:

وذكر أنّ الدال مع المدلول كوجهين للعملة الواحدة لا تنفصل أحدهما عن الآخر.

فإذًا فكرة النظرية الإشارية جاءت وانبثقت من هذه الفكرة الديسوسيرية وتطورت في كتاب(The meaning of meaning)(معنى المعنى) للغويَّيْن المذكورين(أوجدن وريتشارد).

وأصحاب هذه النظرية يقولون إن المشار إليه لا يجب أن يكون شيئًا محسوسًا قابلًا للملاحظة، فقد يكون(المنضدة) مثلًا، وقد يكون كيفية مثل(أزرق)، أو حدثًا(القتل)، أو فكرة تجريدية(شجاعة).

ولكن في كل حالة يمكن أن نلاحظ ما يشير إليه اللفظ؛ لأنّ(كل الكلمات تحمل معاني؛ لأنّها رموز تمثل أشياء غير نفسها).

وقد يكون المشار إليه غير محدد، كما في كلمة(قلم) التي لا تشير إلى قلم معين؛ لأنّها يمكن أن تطلق على أي قلم، وكذلك الفعل(يجري) الذي يشير إلى نوع يحوي كل أفعال الجري.

– وقد أشار القدماء إلى هذه الفكرة الإشارية ولاسيما(حازم القرطاجنّي) الذي قال(أنّ الاشياء أمام الأعيان لها صورة في الأذهان ونطقٌ على اللسان).

وقد تطورت هذه الفكرة الإشارية من المثلث الدلالي إلى المربع الدلالي عند(الامام الغزالي) الذي أضاف ركن الكتابة والخط الى هذا المربع؛ لأنّ ما يُرى في الواقع الخارجي تصبح له فكرة في الذهن ثمّ تتحول هذه الفكرة إلى الكلام، والكلام يدوّن بالخط والكتابة. وهذه إشارة إلى أن القدماء قد تفطنوا إلى مفهوم هذه النظرية وليس مصطلحها.

الاعتراضات أو الانتقادات الموجهة إلى هذه النظرية:

تحدد نظرية الاشارة المعنى بأنّه المشار إليه أي شيء أو المرجع الموجود في الخارج، وقد تعرضتْ هذه النظرية إلى المعنى إلى عدد من الانتقادات أهمّها:

1– أنّها تدرس الظاهرة اللغوية خارج إطار اللغة.

2– أنّها تقوم على أساس دراسة الموجودات الخارجية(المشار إليه). ولكي نعطي تعريفًا دقيقًا للمعنى– على أساس هذه النظرية– لابدّ أن تكون على علم دقيق بكل شيء في عالمنا المتكلم. ولكن المعرفة الانسانية أقلّ من هذا بكثير.

3- هناك كلمات ليس لها مشار إليه في الخارج، كبعض الادوات نحو:(لا، إلى، لكن، لعل،....) أوكلمات لها دلالات معنوية نحو:(الصدق، الصبر، العلم، الشهامة، ظنّ، شكّ،....) أو أشياء وهْمية خرافية مثل(غول، سعلاة، نمنم،...)، أو أشياء غيبية مثل(الجنّ، الملائكة، عفريت) أو قد يكون المشار إليه فانية والمعنى باقية مثل(حدائق بابل، مركز التجارة العالمي،...) ونحو ذلك من الكلمات التي ليس لها وجود خارجي تشير إليه(existing thin). فكل هذه الكلمات لها معنى يفهمه السامع والمتكلم، ولكن الشيء تدلّ عليه لا يمكن أن يتعرف عليه في العالم المادي.

4- أنّه لا يمكن أن تعدد المعاني بتعدد المراجع في العالم الخارجي، إذ لا يمكن أن يكون لنا من المعاني بِقَدَر عدد التفاحات الموجودة في العالم.

2-**النظرية التصورية:** (Image theory)

سمّيت هذه النظرية بالتصورية؛ لأنّها تُرجعُ كلّ الكلام والمفردات اللغوية إلى تلك التصورات العقلية الموجودة في ذهن الانسان التي تدلّ عليها، وهذه التصورات قد تختلف ما بين الناس حسب اختلاف أفكارهم وتصوراتهم.

تُنسب هذه النظرية الى الفيلسوف الانجليزي(جون لوك)(القرن السابع عشر) الذي يقول:"استعمال الكلمات يجب أن يكون الإشارة الحساسة إلى الأفكار، والأفكار التي تمثّلها تعدّ مغزاها المباشر الخاص".

فالمعنى- وفق هذه النظرية- هو التصور العقلي أو الصورة الذهنية التي تستدعيها الكلمة عن السامع أو التي يفكر فيها المتكلم، بمعنى أنّه كي ندرس المعنى ونصل إليه علينا أن ندرس عنصرين- وليس ثلاثة عناصر كما كانت في النظرية الإشارية- وهما: (الفكرة) التي تدعو صورة سمعية أو أصوات معينة، وندرس الصورة السمعية(الكلمة،الدال) التي تدعو الفكرة، فالعلاقة هنا بين اللفظ والمعنى هي علاقة تصورية ذهنية، بمعنى أنه حينما نسمع الكلمة أو نقرأها تستدعي عندها في أذهاننا الصورة التي تعّبِر عنها. والعكس صحيح أنه حينما تظهر صورة لشيء في ذهننا، فإنّها تستدعي اللفظ الذي يشير إليها ، وذلك لأنّه يقول عن اللغة أنّها عبارة عن مخزون ذهني للمفردات.

وقد كانت ظهور هذه النظرية بمثابة الردّ على النظرية الإشارية، لكنّها لم تستطيع أن تستغني عنها؛ لأنّ الانسان لا ينعزل عن واقعه الخارجيي، وما التصورات العقلية أو الذهنية إلّا هي ظلال للاشياء الواقعية، وخير دليل على ذلك أنّ الاشياء غير الموجودة لا يمكن للانسان أن يتصورها، وهذا يدلّ على أنّ التصور يأتي من الواقع.

ويمكن القول بأنّ النظرية التصورية تنطلق من النظرية الإشارية، وذلك بالتركيز على الخط المتواصل الرابط بين(الكلمة أو الدال) وبين(الفكرة أو المحتوى الذهني) من المثلث الدلالي.

والتصورات الذهنية التي تعتمد عليها النظرية التصورية لا يمكن أن تكون صحيحةً؛ فالصورة الذهنية للشيء الواحد متعددة ومختلفة لاختلاف تصورات النّاس للأشياء، فمثلًا تصورتنا لمعاني المفردات المعنوية مثل(الحرية، الرُّعب، الديموقراطية، ....ألخ) تختلف من شخصٍ لآخر حسب خبرات وتحارب كلّ منّا.

المآخذ أو الانتقادات الموجهة إلى هذه النظرية:

1- هناك كلمات كثيرة غير قابلة للتصور، مثل الأدوات النحوية أو الكلمات المعنوية كالحب والشك والصدق ... .

2- هناك تعبيرات مختلفة قد تكون لها صورة ذهنية واحدة، فلو رأيت طفلًا من بعيد يضرب الأرض بقدميْه، فلربما تصوّرتَ "أنّه يتألم" أو "يدهس على حشرة ليقتلها" أو"أنّه يلعب" أو" أنّه غاضب".

3- من أقوى الاعتراضات على هذه النظرية أنّها تتحدّث عن أشياء لا تخضع للنّظر العلمي والفحص والاختبار كالفكرة والصورة الذهنية.

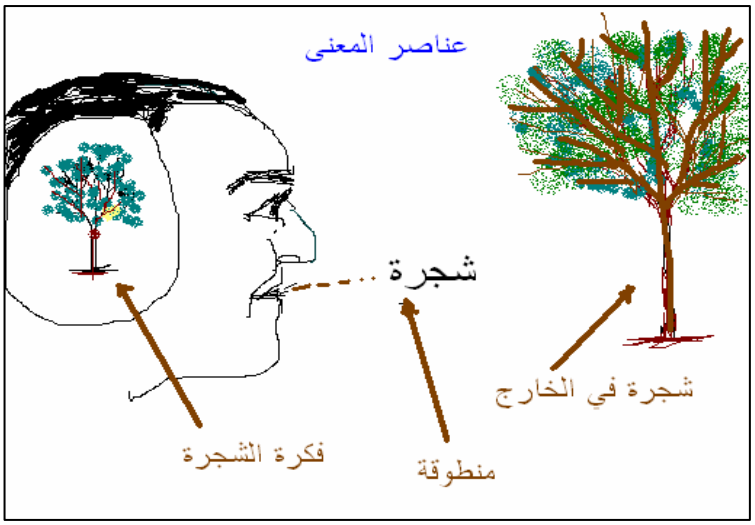

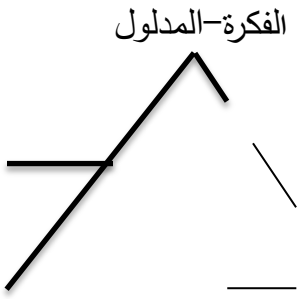

3-**النظرية السياقية:** (Context theory)

يرى أصحاب هذه النظرية أنّ الطريق إلى المعنى ليس رؤية المشار إليه أو التصور الذهني العقلي، إنّما من خلال السياق اللغوي الذي وردت فيه، والموقف الحالي الذي استعملت فيه.

تنسب هذه النظرية إلى اللغوي البريطاني(فيرث)(Firth) الذي أكَّد أنّ المفردة لا قيمة لها خارج السياق، بل تكتسب أهميتها الدلالية وقيمتها الوظيفية من السياق الذي هو الكلام المتوصل والمتبادل بين المتخاطبين، وهذا يعنى أن الكلمة لا يمكن تحديد معناها تحديداً دقيقاً إلا عند ورودها في سياق لغوي كامل.

فالسّياق عند(فيرث) إذًا هو الحاكم والفيصل لتوجيه دلالة المفردات وتحديد مَقْصدية المتكلم من استعمالها في ذلك السياق.

وقد وضح(فيرث) هذه الفكرة بقوله:" إنّ المفردة اللغوية تتبين قيمتها الدلالية ووظيفتها التركيبية من خلال التسييق(أي السياق) "، وذلك صرح فيرث بأنّ المعنى لا ينكشف إلّا من خلال تسييق الوحدة اللغوية، أي وضع الكلمة أو المفردة في سياقات مختلفة.

وعلى هذا عرّفوا المعنى بأنّهُ حصيلة استعمال الكلمة في اللغة من حيث وضعها في السياقات المختلفة.

وتتضح أهمية هذه النظرية في تحليل معاني الكلمات التي تؤدي أكثر من معنى، فمثل هذه الكلمات كلمة(**ضَرب**) أو(**عين**)مثلا، حيث لا يتحدد معناهما إلا من خلال السّياق الذي ترد كلّ منهما فيه:

- ضربَ زيدٌ عمْرًا ⟵ عاقبَ
- ضربَ الله مثلًا ⟵ ذكرَ
- ضربَ له قبّة ⟵ أقامَ
- ضربَ في الأرض ⟵ سعى
- ضرب له موعدًا ⟵ حدد
- ضربَ خمسة في ستة ⟵ الضرب الحسابي

- عين الطفل تؤلمه ⟵ العين: هي الباصرة
- في الجبل عين جارية ⟵ العين:هي عين الماء
- هذا عين للعدوّ ⟵ العين: هي الجاسوس
- ذاك الرجل عين من الاعيان ⟵ العين:السيد في قومه

وكذلك كلمة(**جذر**) التي لها معنى عند الفلاح أو المزارع، ولها معنى ثان عند العالم اللغوي، ومعنى ثالث عند عالم الرياضيات.

وقد تبلورتْ هذه الفكرة عن علماء العرب في أثناء معالجاتهم النّحوية ولاسيما في(باب الاسناد) حينما بيّنوا أن المسند والمسند إليه لا يستغني أحدهما عن الآخر، وتكتمل فائدة الكلام في الكلام الذي يحسن السكوت عليه، وذلك باتمامه ومراعاته للقواعد النّحوية.

وقد تطورت هذه الفكرة عند البلاغيين ولاسيما عند(عبدالقاهر الجرجاني) الذي أَرْسى دعائمَ نظرية (النُّظُم) مُبيّنًا مفهومها بأنّ النُّظمَ هو ارتباط الكَلِم بعضُها لبعضٍ حسب قواعد النّحو وقوانينه وأُصوله ومناهجه بمقتضى ما في العقل.

وبذلك أكّد على أهمية النظم(الذي هو مقابل السياق) في توجيه دلالة المفردات واستعمالاتها الحقيقية والمجازية.

ومما يجدر بالذكر، أن السياق في علم الدلالة ينقسم الى قسمين رئيسين، هما:

1- السياق اللغوي / فهو السياق الذي توجد فيه اللفظة في الجملة، فتكتسب في السياق توجيها دلاليا، وقد تاتي في سياق اخر فتكتسب دلالة اخرى.
2- السياق المقامي(الموقف)/ ويسمى أيضا بسياق الموقف، او سياق الحال، او السياق الخارج عن النص، ويشمل كل ما يحيط باللفظة من عناصر غير لغوية تتصل بالعصر، او نوع القول، او جنسه، او المتكلم، او المخاطَب، او الايماءات والاشارات التي تعطي للفظة دلالتها.

وأبرز مثال للسياق المقامى هو أسباب النزول، او ربط تفسير الايات باوضاع المخاطبين.

أن من اهم الاعتراضات التي وجهت على هذه النظرية هي:

1- إن (فيرث) لم يكن محددا في استخدامه للمصطلح السياق، كما كان حديثه عن السياق المقامي غامضا وغير واضح، كما انه بالغ كثيرا في اعطاء ثقل زائد لفكرة السياق.
2- إن هذا المنهج لا يفيد من تصادفه كلمة يعجز السياق عن ايضاح معناها، فهناك من الكلمات في اللغة لا يمكن ايضاح معناها بمجرد السياق.